(٧)

الغناء والطـــرب...

فى تاريخ المسلمين وواقعهم

obeikandl.com

obeikandl.com

(٧) الغناء والطرب...
فى تاريخ المسلمين وفى واقعهم

لم نعرف فى التاريخ أمة خلت حياتها من الغناء والطرب، وإنما تختلف الأمم فى ذلك من ناحية الكم والكيف: كم يأخذ الغناء والطرب من مساحة فى حياتها؟ وإلى أي حد تتقنه وتتفتق فيه، فمن مكثر ومن مقل. ومن ساذج يجرى على الطبيعة، ومن متفنن أدخل الصنعة والاحتراف فى القضية، حتى غدا لها سوق نافقة، ومحترفون أو محترفات، وأمست لها أدوات وآلات تستخدم فى تحسينها وتلوينها.

كما أن الأمم فى حالة الرخاء غيرها فى حالة الشدة، وفى حالة العافية غيرها فى حالة البلاء، وفى حالة السلم غيرها فى حالة الحرب.

والعرب كغيرهم من الأمم، كان عندهم غناء وطرب، وكان عندهم مغنيات مطربات، اشتهرن بذلك، وكلهن من القيان أو الجوارى، فقد كانوا يعيبون أن تشتغل المرأة الحرة بذلك، كما كانوا يعيبون أن يشتغل الرجال بذلك. وهذه أعراف سائدة ومحترمة.

وكثيرا ما كان الغناء والطرب عندهم مقترنا بالخمر والسكر، وكانت مجالس الطرب هذه مظنة للخلاعة والمجون، ولم يكن فى جياتهم الجاهلية ما يحجزهم عن ذلك.

فلما جاء الإسلام بعقائده وشرائعه وقيمه وأخلاقه، شغل الناس بأمر جديد، وهم جديد، وفكر جديد، وسلوك جديد، ونقل الناس نقلة نوعية: من حياة إلى حياة، تغيرت فيها الأهداف، وتغيرت الوسائل، وتغيرت الطموحات، وتغيرت منظومة القيم والسلوكيات، أنشئ الإنسان المسلم خلقا آخر. فما أعظم الفرق بين إنسان الجاهلية وإنسان الإسلام؟

وشغل المسلون فى العهد المكى بتبليغ الدعوة، والابتلاء وتحمل الأذى فى سبيلها، والصبر على مشاقها، وفى العهد المدنى ابتلوا بالجهاد والكفاح المسلح فى سبل الدفاع عنها، حتى غزا المسلمون مع رسول الله ﷺ سبعا وعشرين غزوة، وذهبوا فى سرايا حربية بلغت بضعا وخمسين سرية.

فلم تكن هذه الجماعة المشغولة بالدعوة والابتلاء بالصبر والمصابرة عليها والجهاد فى سبيلها، لتفرغ للسماع والغناء والطرب فى حياتها، وهى تقدم الضحايا تلو الضحايا، ومواكب الشهداء وراء مواكب الشهداء.

ومع هذا لم تخل حياتهم من مواقع للسرور والابتهاج، مثل أيام الأعراس، والأعياد، وقدوم الغائب ونحوها، وهى المناسبات التى ورد فيها ما ورد من أحاديث الغناء التى ذكرناها من قبل فى مواضعها من هذا الكتاب، وخصوصا عندما ذكرنا أدلة المبيحين للغناء.

هل وجد فى عصر النبوة والصحابة مغنون أو مغنيات؟:

وهنا يبرز سؤال: هل وجد فى عصر النبوة أو فى عصر الراشدين والصحابة: مغنون أو مغنيات، هواة أو محترفون؟

والذى يظهر أنه لم يعرف فى عصر النبوة مغنون من الرجال، بمعنى أنهم يتقنون الغناء، على أصوله المعروفة، إنما كان يوجد رجال ذوو صوت حسن، وإيقاع مؤثر، يحدون بحداء الركبان، مثل أنجشة، الذى حدا بالإبل فأسرعت، وعليها النساء، فأشفق عليهن النبى ﷺ، فقال: «يا أنجشة رفقا بالقواريرا» وهى كلمة نبوية بليغة، شبهت النساء فى رقتهن بالقوارير التى يخشى عليها الكسر أو الخدش لأدنى سبب.

ويظهر أن العرب - منذ جاهليتهم - كانوا يعتبرون الغناء - بوصفه صنعة - أمرا لا يليق برجولة الرجال، ولا حتى بحرائر النساء، فقصروه على (القينات) أى الإماء المغنيات منهن.

وأما المغنيات فقد دلت بعض الأحاديث، أنه كان بالمدينة بعض المغنيات،

وقد كان للمدينة منذ عهد الجاهلية تراث غنائى، فقد كان أهل المدينة أكثر ولعا بالغناء من أهل مكة، كما أشار إلى ذلك الحديث النبوى «إن الأنصار يعجبهم اللهو» ولكن يبدو أنهن لم يكن كثيرات.

ويتبين لنا ذلك من الأحاديث الآتية:

الأولى: ما يتبين مما سبق ذكره من رواية النسائى: أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة: «هل تعرفين هذه؟ قالت: لا. قال: إنها قينة بنى فلان. أتحبين أن تغنى لك؟» فغنت لها.

والثانية: (أرنب) وقد ترجم لها الحافظ ابن حجر فى (الإصابة فى تمييز الصحابة) حيث قال:

(أرنب) المدنية المغنية... روينا – فى الجزء الثالث من أمالى المحاملى، رواية الأصبهانيين من طريق ابن جريج: أخبرنى أبو الأصبع: أن جميلة المغنية أخبرته أنها سألت جابر بن عبدالله عن الغناء، فقال: نكح بعض الأنصار بعض أهل عائشة، فأهدتها إلى قباء، فقال النبى ﷺ: «أهديت عروسك؟ قالت: نعم. قال: فأرسلت معها بغناء، فإن الأنصار يحبونه؟ قالت: لا. قال: فأدركيها بأرنب» امرأة كانت تغنى بالمدينة[1]. ومعنى هذا: أن هذه المرأة كانت معروفة لدى الرسول ﷺ وقد ذكر فى هذا الحديث اسم (جميلة) المغنية فاستفدنا ذلك منه.

والثالثة: حمامة. ذكرها فى الإصابة أيضا. قال: (حمامة) المغنية من جوارى الأنصار. ذكرت فى حديث عائشة: لما دخل أبو بكر عليها، فى يوم عيد، وعندها جاريتان تغنيان، سمى منهما (حمامة) فى رواية فليح لابن أبى الدنيا عن هشام عن أبيه عن عائشة[2].

والرابعة: (سيرين) جارية حسان بن ثابت شاعر الرسول المعروف، وقد ترجم لها ابن حجر فى (الإصابة) كذلك، وقال: إنها أم ولد حسان. وإن أمير

---

(١) الإصابة (ج٤ / ٢٢٦) ترجمة (٢٨) من النساء.

(٢) الإصابة (ج٤ / ٢٧٢) ترجمة (٣٠٢).

القبط أهدى لرسول الله ﷺ جاريتين أختين، إحداهما: (مارية) التى تسراها الرسول الكريم وولدت له ابنه إبراهيم، والثانية (سيرين) أعطاها حسانا فولدت له ابنه عبد الرحمن.

وقال الحافظ: أخرج أبو نعيم من طريق بشر بن محمد المؤدب عن أبى أويس عن حسين بن عبدالله عن عكرمة عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بحسان، ومعه أصحابه سماطين، وجارية له يقال لها (سيرين) وهى تغنيهم، فلم يأمرهم ولم ينههم. رواه ابن وهب عن أبى أويس مثله، لكن قال: «وجارية طربة تغنى لهم»(١). ولعل هذه القصة هى التى رواها أبو الفرج الأصفهانى.

فقد روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب (آداب السماع) فقال حدثنا عبدالله بن شيبة قال حدثنا إسماعيل بن أبى أويس قال حدثنى أبى عن حسين بن عبدالله عن عكرمة عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بحسان بن ثابت وهو بفناء اطمة، ومعه سماطان من أصحابه، وجاريته تغنيهم، فانتهى إليها رسول الله ﷺ وهى تقول:

هل علىَّ ويحكما إن لهوت من حرج؟

فابتسم رسول الله ﷺ وقال: «لا حرج». وقد ذكر القصة ابن عبد ربه فى (العقد الفريد)(٢).

ولكن إسناد مثل هذه القصة فى كتب الأدب لا يمكن التعويل عليه.

وقد اتسع هذا الأمر - أمر الغناء والطرب - بعد عصر النبوة والراشدين، ووجد هناك مغنيات مشهورات مثل (عزة الميلاء) وأمثالها.

وفى عصر بنى أمية اتسع المجال أكثر من عصر الراشدين.

أما فى عصر بنى العباس، فقد زاد التفنن والاحتراف، ودخل فى الغناء رجال معروفون، وصنفت الكتب فى ذلك فى تدوين الغناء وألحان المغنين.

---

(١) أنظر: الإصابة ج٤ / ٢٣٩ ترجمة (٦٠٩) من كتاب النساء.

(٢) انظر: التراتيب الإدارية للكتانى ج٢ / ١٣١.

الغناء والطرب فى واقع المسلمين

ومن نظر فى أحوال المسلمين، وتأمل فى واقعهم المعيش، لم يجد خصومة بين المسلمين المتدينين وبين الاستمتاع بطيب السماع.

إن أذن المسلم العادى موصولة بـ(طيبات السماع) تلتذ بها، وتتغذى عليها كل يوم.

من خلال القرآن الكريم الذى تستمعه مرتلا ومجودا ومزينا بأحسن الأصوات، من أحسن القراء.

ومن خلال الأذان، الذى تطرب لسماعه كل يوم خمس مرات بالصوت الجميل. وهو ميراث من عهد النبوة، فقد قال النبى ﷺ للصحابى الذى كشف له عن ألفاظ الأذان فى رؤيا صادقة: علمه بلالا، فإنه أندى منك صوتا.

ومن خلال الابتهالات الدينية، التى تنشد بأعذب الألحان، وأرق الأصوات، فتطرب لها الأفئدة، وتهتز لها المشاعر.

ومن خلال المدائح النبوية التى توارثها المسلمون منذ سمعوا ذلك النشيد الحلو من بنات الأنصار. ترحيبا بمقدم الرسول الكريم ﷺ:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وأذكر أنى منذ نحو خمس وعشرين سنة سمعت هذا النشيد من تلميذات مدرسة ابتدائية إسلامية فى إندونيسيا، يغنينه بلحن جماعى مؤثر رقيق، وكنا وفدا من دولة قطر. فرقت له قلوبنا، وسالت أدمعنا على خدودنا من فرط الرقة والتأثر.

وفى الأعصر الماضية استطاع المسلمون أن ينشئوا لأنفسهم ألوانا من «طيبات السماع» يروحون بها عن أنفسهم، ويجملون بها حياتهم، وخصوصا فى القرى والريف. وقد أدركنا ذلك فى عهد الصبا ومطالع الشباب. وكلها ألوان فطرية نابعة من البيئة، معبرة عن قيمها، ولا غبار عليها.

ومن ذلك: فن المواويل، يتغنى بها الناس فى أنفسهم، أو يجتمعون على سماعها، ممن كان حسن الصوت منهم، وأكثرها يتحدث عن الحب والهيام والوصل والهجران، وبعضها يتحدث عن الدنيا ومتاعبها، ويشكو من ظلم الناس والأيام.. إلخ. وكان لها تأثير بالغ على نفوس الناس.

وأكثرهم كان يتغنى بها بغير آلة، وبعضهم مع «الأرغول»، ومن هؤلاء الفنانين الفطريين: من كان يؤلف «الموال» ويلحنه ويغنيه فى وقت واحد.

ومنها: قصص البطولة، التى تتغنى ببطولات بعض الأبطال الشعبيين، أبطال الكفاح، أو أبطال الصبر، يسمعها الناس، فيطربون بها، ويرددونها، ويكادون يحفظونها عن ظهر قلب. يعرف المصريون فى ذلك: قصة «أدهم الشرقاوى» و«شفيقة ومتولى»، و«أيوب المصرى»، و«سعد اليتيم» وغيرها.

ومنها: الملاحم الشعبية للأبطال المعروفين، مثل «أبى زيد الهلال» و«سيرة بنى هلال»، التى كان يجتمع لها الناس، ليسمعوا القصة، ويستمعوا معها إلى أشعار أبطالها على نغمات «الربابة» من «الشاعر الشعبى» الذى تخصص فى هذا اللون، وكانت هذه الملاحم لها عشاقها وتقوم مقام «المسلسلات» فى هذا العصر، وقد شهدتها فى صباى واستمتعت بها مع أبناء قريتى.

ومنها: أغانى الأعياد والأفراح والمناسبات السارة، مثل: العرس، وولادة المولود، وختان الصبى، وقدوم الغائب، وشفاء المريض، وعودة الحاج ونحوها وللناس فى ذلك أغان معروفة ومحفوظة، ألفها أناس مجهولون، ولا يزالون يؤلفون بين الحين والحين أشياء جديدة، تمتع الناس، ويسير بها الركبان، يتناقلونها بعضهم من بعض.

وقد ابتكر الناس أغانى وأهازيج لحنوها وغنوها بأنفسهم فى أحوال ومناسبات مختلفة، مثل جنى الثمار أو القطن وغيرها.

ومثل: أهازيج العمال والفعلة، الذين يعملون فى البناء وحمل الأثقال ونحوه، مثل: «هيلا، هيلا.. صل على النبى».. وهذا له أصل شرعى من عمل

الصحابة، وهم يبنون المسجد النبوى، ويحملون أحجاره على مناكبهم. وهم ينشدون:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفـــر للأنصار والمهاجـرة

حتى الأمهات، حين يهدهدن أطفالهن، ويهيئنهم للنوم، يستخدمن الغناء، ولهن كلمات مشهورة، مثل: «يا رب ينام، يا رب ينام..».

ولا زلت أذكر «المسحراتية» فى شهر رمضان المبارك، وهم يوقظون الناس بعد منتصف الليل بمنظومات يلذ سماعها منغمة مع دقات طبولهم. ومنهم من كان يبتكر هذه الأهازيج أو المواعظ، وكثير منها كان غاية فى الطرافة والإمتاع.

ومن جميل ما يذكر هنا: ما اخترعه الباعة فى الأسواق، والباعة المتجولون: من النداء على سلعهم بعبارات منظومة موزونة. يتنافسون فى التغنى بها، مثل بائع العرقسوس، وباعة الفواكه والخضروات، وغيرهم. وكل سلعة منها لها عبارات تخصها وتغرى بها.

وهكذا نجد هذا الفن – فن الغناء – يتخلل الحياة كلها، دينية ودنيوية، ويتجاوب الناس معه بتلقائية وفطرية، ولا يجدون فى تعاليم دينهم ما يعوقهم عن الاستمتاع به. ولم ير علماؤهم فى هذه الألوان الشعبية ما يجب أن ينكر. بل أكثر من ذلك نجدها جميعا ممزوجة بالدين ومعانى الإيمان والقيم الروحية، والمثل الأخلاقية، امتزاج الجسم بالروح: من التوحيد وذكر الله والدعاء والصلاة على النبى ﷺ، وما شابهها[1].

وهذا الذى لاحظته فى مصر، وجدت مثله فى بلاد الشام، وفى بلاد المغرب، وغيرها من بلاد العرب.

* * *

(١) لا أجد فى الألحان والأغانى الشعبية ما ينكره الدين، إلا ما كانت تصنعه النائحة المستأجرة مما يهيج الأحزان، ويثير الجزع، ويحرم المصاب من الصبر على البلاء، والرضا بالقضاء.